مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 10 عدد: 3 السنة: 2021
ص: 922 - 935 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

التطبيقات البلاغية في ضوء الدرس الإعجازي: تفسير الكشاف للزمخشري أنموذجا

Rhetorical Applications in Light of the I'jaz Study : Tafsir 'Al-Kashshaaf' by Zamakhshari as a Model.

د. محمد مقدم *
Mokeddem Mohammed
جامعة أحمد زبانة غليزان الجزائر
Université of relizane
mokeddem.med1976@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/11/08	تاريخ القبول: 2021/04/04	تاريخ النشر: 2021/09/02

ملخص البحث

يتفق الباحثون في مجال الدراسات اللغوية والقرآنية على القيمة العلمية الجليلة التي قدمها علماء التفسير عبر الحقب الزمانية المتعاقبة، ومرد ذلك إلى الطابع الموسوعي الذي عرف به علماء التفسير، فالمطالع لمصنفاتهم يقف على الثقافة التفسيرية الموسوعية التي وظفها المفسرون في تحليلهم وتفسيرهم للنص القرآني، بالرغم من تأثر بعضهم بثقافته الخاصة أو مرجعيته الإيديولوجية، ولذلك وجدنا أن المجال الأرحب للتطبيقات الإجرائية للدرس اللغوي والبلاغي بمختلف مضامينه ومكوناته مبثوثا في تفسير الآيات القرآنية عند المفسرين ، وبخاصة ممن غلب على تآليفهم النزعة اللغوية والبيانية على غرار الكشاف للزمخشري، هذا الأخير الذي ركزت عليه في هذه الدراسة من خلال عرض مجمل لأهم القضايا البلاغية التي تعرض لها في تفسيره في ضوء تعامله مع المباحث الإعجازية في القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية : البلاغة ، الدرس الإعجازي، النظم القرآني، المجاز، الكناية ، الاستعارة، البديع.

Abstract :
Researchers in the field of linguistic and Qur'anic studies agree on the venerable scientific services provided by 'tafsir' scholars across the successive temporal periods, and this is due to the encyclopaedic nature for which they are known. The perusal of their works stands on the encyclopaedic exegesis that the interpreters employed in their analysis and explanation of the Qur'anic text, though influenced by their own culture or ideological reference. Therefore, we found that the wider range of procedural applications of the linguistic and rhetorical lesson, in its various contents and components, is rooted in the interpretation of the Qur'anic verses among the interpreters, especially those whose works dominated the

* مقدم محمد: mokeddem.med1976@gmail.com

linguistic and graphic tendency similar to 'Tahrir wa tanouir' by al-Taher bin Ashour, and 'El Kashshaaf' by Zamakhshari, The latter, on which this study focused on, by presenting an outline of the most important rhetorical issues that he dealt with in his interpretation in light of his dealings with the miraculous investigations in the Holy Quran.
Key words: rhetoric, I'jaz study , Qur'anic systems, metaphor, Metonymy. Al-Badi

مقدمة

إنه على الرغم من الاهتمام بالقرآن الكريم من قبل الصحابة– رضي الله عنهم– وإقبالهم عليه إلا أنه لم ينقل عنهم شيء مما له علاقة بقضية الإعجاز، والكشف عن مواطنه، وبيان وجوهه، وذلك لعدة أسباب لعل من أهمها:

عمق مثل هذه الدراسات وارتفاع مستواها من جهة، ثم إجلالا وتهيبا لعظمة المعجزة الإلهية التي خص الله بها رسوله من جهة أخرى. ثم لأن برهانه قائم في نفوسهم لصحة طباعهم وسلامة ألسنتهم وفطرهم.

من هنا تهيب كثير من الصحابة والسلف ممن كانوا علماء باللغة فقهاء في الدين، تفسير القرآن وتركوا القول فيه مخافة الزلل والقول فيه بالرأي والتألي على الله في الكشف عن مراده، الذي لا يعلم تأويله إلا الله تبارك وتعالى[1].

ولكن الحال لم يبق على ما كان عليه من تذوق للقرآن بالفطر السليمة خاصة" بعد أن تقدم الزمن، وانتشر المسلمون في أرجاء الأرض بانتشار الإسلام في الأمصار، وابتعدوا عن البيئة العربية السليمة واختلطوا بغيرهم من أبناء البلدان المفتوحة، لم يعد إعجاز القرآن يدرك بالفطرة، وإنما صار إدراكه يتطلب دراسة واعية، ومستفيضة للغة العربية وإحاطة بغريبها، ومعرفة تامة بأساليب التعبير فيها، لتنمو لدى من يريد التصدي لمعرفة الإعجاز ملكة تمكنه من إدراك هذه الناحية في القرآن العظيم. فانتقل الإعجاز من مرحلة التذوق الفطري إلى مرحلة التذوق العلمي الذي يجب أن تسبقه دراسة واسعة لأساليب اللغة العربية، تؤهل صاحبها لإدراك ناحية الإعجاز في القرآن العظيم. وهذا يعني أن الإعجاز الذي كانت تدركه أكثر العرب من الذين عاصروا نزول القرآن الكريم أصبح من اختصاص طائفة قليلة من المسلمين هي التي بيدها وسائل التذوق الفني"[2].

إن دراسة الإعجاز في القرآن على صلة وثيقة بتفسير القرآن، فالإعجاز تابع للتفسير من حيث إنه يعتبر خلاصة العمل التفسيري الدائر حول النص القرآني. بمعنى أن النص يفسر ويشرح ثم يشار بعدها إلى خصائصه الخارقة، وهذا دليل على أن الإعجاز لا يكون إلا تابعا للتفسير يتلون بلونه، ويأخذ طابعه وسماته في كل عصر. ذلك أن الطابع اللغوي هو من أهم مميزات التفسير البياني، فقد جاء أقوى وجوه الإعجاز وأظهرها على الإطلاق من جنسه. وذلك يظهر جليا من خلال تطبيقات المفسرين في كتبهم، وسعيهم إلى بيان بلاغة القرآن وفصاحته، وتقدمه وسبقه لكل كلام وتفرده عنه.

والمتأمل في كتب المفسرين يجد كثيرا منهم قد تطرق إلى بلاغة القرآن الكريم من خلال قضية الإعجاز، وأن معظمهم جرهم للحديث عنها وقوفهم على آيات التحدي المختلفة، التي جاءت في القرآن الكريم. ومن أولئك المفسرين ابن جرير الطبري والراغب الأصفهاني والزمخشري وابن عطية وفخر الدين الرازي وبدر الدين الزركشي وجلال الدين السيوطي وأبو السعود والآلوسي... وغيرهم كثير سواء من الأقدمين أو من المحدثين.

وفي ضوء هذا المعطى، يقف الدارس في قراءاته ومتابعاته لهذه التفاسير وقفة تأمل تحيله إلى تبيان أوجه الاختلاف والتباين وكذا أوجه الاتفاق والتطابق . من هنا، وفي ضوء تناولنا لأحد هذه التفاسير بالدراسة تتولد من صميم الموضوع جملة من الإشكالات ،تلبي رغبة الإجابة عن التساؤلات الآتية:

ما هي أهم المباحث البلاغية التي اعتمدها الزمخشري في منهجه التفسيري؟

ما هي أهم الدعائم الموظفة في تطبيقات الزمخشري على النظم القرآني في تدليله لأوجه الدرس البلاغي الإعجازي من القرآن الكريم؟

ما هي أهم الآليات الإجرائية التي وظفها الزمخشري من خلال ما عرض له من نماذج في تفسيره؟

المبحث الأول : الإعجاز القرآني مفهومه ومباحثه عند الزمخشري

المطلب الأول: مفهوم الإعجاز عند الزمخشري.

إن المتأمل في الدراسات البلاغية التي بنيت أساسا على الحديث عن قضية الإعجاز القرآني يلمس ذلك التطور الذي شهدته هذه الدراسات خاصة على يد المعتزلة الذين أسسوا صرح البلاغة العربية وذلك لما امتازت به عقول هذه الطائفة التي صقلتها الفلسفة والمنطق اللذان انكبوا على دراستهما وتعمقوا في مباحثهما، فكانت مهيّأة للخوض في المسائل البلاغية ودروس البيان، وتنظيم القول فيها تنظيما دقيقا.

وربما كانت طبيعة المهمة التي اضطلع بها المعتزلة في الدفاع عن الإسلام. ومناظرة أعدائه من أصحاب الملل والعقائد الأخرى تدفعهم دفعا إلى العناية بمسائل البلاغة والبيان وإتقان البحث فيهما.فقد كانت البلاغة وسيلة من وسائل الإقناع وسلاحا مهما في المناظرة والجدل"[3] .

ولما كانت الدراسات البلاغية، قد نشأت في أجواء من الصراع الفكري والجدل الكلامي. فإن هذا قد جعل الدراسات التطبيقية تنضج جنبا إلى جنب مع الجانب النظري فيها ويعتبر تفسير الزمخشري مثالا واضحا عن هذا التطور ذلك أن الزمخشري قد أبتدأ من حيث انتهى من تقدموه فقد كانت دراسة إعجاز القرآن عند من سبقه إما دراسة جزئية لا تتحدث إلا عن أمثلة ونماذج قليلة من الآيات أو دراسة نظرية تحاول أن تضع مبادئ وأصولا وتحدد معالم بارزة يمكن أن تتخذ مقياسا في دراسة الإعجاز القرآني والكشف عن روعته وجماله، فلم يتوقف الجاحظ إلا عند بعض الآي وانشغل القاضي عبد الجبار والشريف المرتضى غالبا بالآيات المتشابهات التي تخالف ظواهرها الاعتزال، ولم يتوقفوا إلا عند نماذج بلاغية قليلة جدا كان الدافع إلى معالجتها في غالب الأحيان الدفاع عنها مما وجه إليها الخصوم والمتشككون من مطاعن وشبه. وانتهى الأمر إلى الإمام الكبير عبد القاهر الجرجاني الذي يعد قمة ما وصلت إليه الدراسات البلاغية، وانتهى بعد دراسة فنية ممتازة إلى مثل ما كان قد انتهى إليه القاضي عبد الجبار المعتزلي من أن القرآن معجز في نظمه وتأليفه. ثم جاء الزمخشري في القرن السادس الهجري فلم يخلف ظن عبد القاهر ولم يحد عن سنته فهو بعد أن أقبل على دراسات المتقدمين يعب منها وجد في نظرية الجرجاني الأشعري موردا له وكأنما أحس بثاقب بصره أن هذه النظرية تمثل ذروة ما وصلت إليه دراسة البلاغة العربية ففزع إليها يتخذها سلاحا في تفسير القرآن وبيان وجه الإعجاز فيه"[4].

لقد ركز الزمخشري كثيرا على قضية النظم ورأى أنها وجه من وجوه الإعجاز، ذلك أن الزمخشري يرى أن القرآن العظيم كتاب معجز من جهتين:

- من جهة إعجاز نظمه.

— ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيب.

المطلب الثاني: النظم القرآني وتطبيقاته في تفسير الزمخشري.

لقد ركز الزمخشري كثيرا على هذا الوجه ونوه بجهة إعجاز القرآن من هذه الناحية، وجعلها الأساس في تعليله للإعجاز في القرآن الكريم. فنجده في تفسيره لقوله تعالى:(أَنْ إِقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّه)[5] قال:"الضمائر كلها راجعة إلى موسى،

ورجوع بعضها إليه، وبعضها على التابوت فيه هجنة لما يؤدي إليه من تنافر النظم الذي هو أم إعجاز القرآن. والقانون الذي وقع عليه التحدي، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر"[6].

فالزمخشري إذن يرى أن هذا الوجه من أهم وجوه الإعجاز، ويرى بذلك أيضا أن مظان الإعجاز في القرآن هي ما ضُم عليه نظمه من دقيق المعاني ولطيفها وما تحمل ألفاظه في كيانها من أسرار محجبة لا ترى إلا لمن أوتي حظا من ذوق الكلام وفهم مرامي البيان. ولذلك نجده يقرر في بداية تفسيره أن هذا العلم لا يستجيب إلا لمن أوتي حظا كبيرا من علم المعاني والبيان، مع فطرة سليمة، وبصيرة نافذة، ونفس قوي...

يقول الزمخشري: "ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق مسبكها، علم التفسير الذي لا يقوم لتعاطيه، وإجالة النظر فيه، كل ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن...فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن برز على أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرِيَّة أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه. لا يتعدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني، وعلم البيان. وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثه على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله... وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقضان النفس داركا للمحة وإن لطف شأنها، منبها على الرمزة وإن خفي مكانها"[7].

إذن فليس التفسير عند الزمخشري معرفة معاني القرآن فحسب، بل هو أيضا بيان لأسرار إعجاز القرآن" بل إن نفس معرفة معانيه لا تتم إلا لمن تمت له آلة البلاغة، وعرف وجوه الأساليب، وخصائصها المعنوية، وحذق الأسباب المعينة على تمييز صور الكلام البيانية"[8]. فلا غرو إذا وجدنا الزمخشري في ثنايا تفسيره منبهرا تجاه علم البلاغة حتى أنه عدها آلة ضرورية في فهم معاني القرآن والوقوف على أسرار إعجازه.

إلا أن الشيء الملاحظ أن القسمة الثلاثية لهذا العلم لم تكن قد ظهرت وبانت عنده بشكل جلي، وإن كانت قد انقدحت في ذهنه. ولا أدل على ذلك من التطبيقات التي ذكرها في ثنايا تفسيره، إلا أن ذلك "لا يفهم منه أنه يفصل بين علوم البلاغة، أو أنه أول من ابتدع تقسيم علوم البلاغة إلى معان

وبيان وبديع. لأننا وجدناه لم يلتزم بهذا الفصل في تفسيره وبيانه للأوجه البلاغية في كثير من آيات القرآن، بل كان أحيانا يذكر ألوانا هي من صميم البيان ثم يعقب عليها بقوله: وهذا من الصنعة البديعية. مما يدل على أن حدود كل علم من علوم البلاغة لم تتضح في ذهنه الوضوح الكافي حتى يلتزمها في التطبيق"[9].

وسأحاول فيما يأتي بيان تطبيقات الزمخشري على النظم القرآني، وذلك من خلال استعراض نماذج عن الأقسام الثلاثة التي تطرق إليها في تفسيره والتي تشكل بمجموعها علم البلاغة العربية، وأقصد بذلك علم المعاني والبيان والبديع .

المبحث الثاني : التطبيقات البلاغية في تفسير الزمخشري

المطلب الأول: نماذج من دلالات علم المعاني في النظم القرآني.

من بين ما تحدث عنه كثيرا في تفسيره أسلوب التقديم والتأخير، ومثال ذلك عند تفسيره قوله تعالى:(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا)[10] قال الزمخشري: "فإن قلت أي فرق بين قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم، وبين النظم الذي جاء عليه؟. قلت: في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسما لـ(أن) وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازّتهم –أي مغالبتهم– وليس ذلك في قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم"[11].

كما تحدث عن أسلوب الالتفات من ذلك قوله في قوله تعالى:(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)[12]."الالتفات في علم البيان قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم)[13] وقوله تعالى: (واللَّهُ الذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ)[14]. وبين أن هذا كان جريا على عادة العرب في الكلام فقال: وذلك عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد. ومما اختص به هذا الموضع إنه لما ذكر الحقيقة بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له، لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به"[15].

كما تحدث عن أسلوب النداء كما في قوله تعالى:(يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الذِي خَلَقَكُمْ والذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[16] فيقول: "و(يا) حرف وضع في أصله لنداء البعيد، صوت يهتف به لمن يناديه، وأما نداء القريب فله (أي) و(الهمزة)، ثم استعمل في مناداة من سهى وغفل وإن قرب تنزيلا له منزلة من بعد، فإن نودي به القريب الفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جدا. فإن قلت: فما بال الدّاعي يقول في جؤاره: يارب، ويالله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأسمع به وأبصر؟. قلت هو اسقتصار منه لنفسه واستبعاد لها من مظان الزلفى، وما يقربه إلى رضوان الله ومنازل المقربين هضما لنفسه وإقرارا عليها بالتفريط في جنب الله...فإن قلت: لم كثر النداء في القرآن على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟. قلت لأن فيه أوجها من التأكيد وأسبابا من المبالغة منها ما في (يا) من التأكيد والتنبيه، وما في (ها) من التنبيه، وما في التدرج من الإبهام في (أيها) إلى التوضيح، والمقام يناسب المبالغة والتأكيد لأن كل ما نادى الله به عباده من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، وفي اقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق الله به كتابه. أمور عظام وخطوب جسام، ومعان واجب عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم غافلون، فاقتضى الحال أن ينادوا بالآكد والأبلغ"[17].

إن هذه الإشارات التي ذكرناها عن الزمخشري في هذا المجال إنما هي غيض من فيض، ولكن حسبنا في هذا المقام أن نشير إلى اهتمام الزمخشري ببيان بلاغة القرآن وروعة نظمه من خلال التطبيقات التي هي مبثوثة في ثنايا تفسيره.

إلا أن المتأمل فيما ذكره الزمخشري من نماذج عن أساليب القرآن المختلفة يجد أنه قد تأثر كثيرا بعبد القاهر الجرجاني وقد استفاد إفادة كبيرة من نظريته التي بناها على النظم القرآني وذلك ما صرح به كثير من الباحثين في البلاغة العربية حيث إننا : " إذا تتبعنا جهود الزمخشري البلاغية في كتابه الكشاف في تفسير القرآن فإننا نجده يستمدها من بلاغة عبد القاهر وقواعده ملتمسا لها الشواهد من آي الذكر الحكيم ومضيفا إليها ما يعن له من آراء وتقسيمات وتفريعات. ففي ميدان (علم المعاني) نراه يعرض للإيجاز والإطناب وأنواع كل منهما وأغراضه البلاغية والتقديم والتأخير في المسنند إليه، والأغراض المستفادة منه في حالة تعريفه وتنكيره، كما يعرض لأضرب الخبر وأساليب الإنشاء الطلبي من أمر ونهي واستفهام ونداء وتمن وللمعاني الزائدة التي يخرج كل منها عن معناه الحقيقي للدلالة عليها وكذلك يعرض للقصر وأقسامه وطرقه والفصل والوصل بالواو خاصة"[18].

المطلب الثاني: نماذج من دلالات علم البيان في النظم القرآني.

1- المجاز

وقد ذكره في مواضع عديدة من ذلك عند تفسير قوله تعالى: خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)[19] فنجده يعرض وجوها خمسة[20] في إسناد الختمية إلى الله كلها مسخرة لخدمة فكرة المعتزلة عن العدل الإلهي يقول: "فإن قلت: ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار؟ قلت: لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة وإنما هو من باب المجاز"[21].

كما تحدث عنه وعن علاقاته، خاصة السببية فنجده يقول معلقا على آية التوبة :(يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)(22) الأموال يؤكل بها فهي سبب الأكل ومنه قوله:

إن لنا أحمرة عجافا يأكلن كل ليلة إكافا

يريد علفا يشترى بثمن إكاف"[23].

وقال في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً)[24] "لسان الصدق والثناء الحسن، وعبر باللسان عما يوجد باللسان، كما عبر باليد عما يطلق باليد وهي العطية قال: إني أتتني لسان لا أسر بها"[25] يريد الرسالة ولسان العرب لغتهم وكلامهم"[26].

2- الكناية:

وهي من الصور البيانية التي تعرض لها الزمخشري، فنجده مثلا في تفسيره قوله تعالى:(وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ)[27]. يقول معلقا عليها: "التعريض هو أن يقول لها إنك جميلة أو صالحة، ومن غرضي أن أتزوج، وعسى الله أن ييسر لي امرأة صالحة، ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه يريد زواجها، حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه ولا يصرح بالنكاح فلا يقول: إني أريد أن أنكحك، أو أن أتزوجك، أو أخطبك...فإن قلت:أي فرق بين الكناية والتعريض؟. قلت الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له. كقولك: طويل النجاد والحمائل لطويل القامة، وكثير الرماد للمضياف. والتعريض أن تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم. ولذلك قالوا: وحسبك بالتسليم مني تقاضيا. وكأن إمالة الكلام إلى عرض جانب يدل على الغرض ويسمى التلويح، لأنه يلوح منه ما يريده"[28].

وتعريف الكناية على هذا النحو يجعلها أشبه بالمجاز الذي تستعمل فيه الألفاظ في غير ما وضعت له، ولعل الزمخشري يريد أنها تدل على لازم معناها الأصلي، مع دلالتها على معناها الحقيقي تبعا. بخلاف التعريض فإنه يدل على المعنيين جميعا، وقد جعله من جاءوا بعده صورة من صور الكناية"[29].

يقول الزمخشري في قوله تعالى:(إِنَّ الذِينَ يَشتَرُونَ بعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[30] (ولا ينظر إليهم) مجاز على الاستهانة بهم والسخط عليهم تقول: فلان لا ينظر إلى فلان، تريد نفي اعتداده به وإحسانه إليه. وأصله فيمن يجوز عليه النظر الكناية، لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه، ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن ثم نظر. ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجردا لمعنى الإحسان، مجازا عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر"[31]. وهو هنا يلاحظ في الكناية أنها مجاز من جهة وأنها تدل على المعنى الأصلي من جهة ثانية، إذ جعلهما يجتمعان في الآية الكريمة.

والزمخشري في هذه الآية لم يتناول الآية ككل، وإنما تناول بالنظر الدقيق جزءا منها هو قوله تعالى: (وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ) وكشف عما وراء الكناية فيه من معان وأفكار ولو أنه تناول الآية ككل بمثل تلك القريحة لأبان عن روعة ما يتعلق بالنظم من معجز الصور...[32].

فانظر كيف أن الآية مشحونة بدلالات ومعان بعضها يبين عن ملامح نفسية، وبعضها يضع ركيزة هامة لبناء صرح الحياة الاجتماعية، وبعضها يرسم حدودا للمعاملات والأخلاق. والقرآن كله على هذا النمط طاقات من تلك المعاني تحتاج إلى بحث وتنقيب وجهود تتظافر وتجتمع لتستخرج منه كامن الأسرار.

3- الاستعارة.

وقد تعرض لها الزمخشري وإلى أقسامها كالتصريحية والمكنية، والأصلية والتبعية وهي عنده "إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له، ويجعل الكلام خلوا عنه صالحا لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه، لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام"[33]. وهو يرى أن الاستعارة إما أصلية وتكون في الأسماء وإما تبعية وتكون في الصفات والأفعال.

يقول في قوله تعالى:(وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا)[34] "قد استعار الله النور للحق والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل، وهذا من ذاك والمعنى (وأشرقت الأرض) بما يقيمه فيها من الحق والعدل ويبسطه من القسط في الحساب ووزن الحسنات [35].

ويقول في قوله تعالى:(أولَئِكَ الذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالهُدَى)[36] "معنى اشتراء الضلالة بالهدى اختيارها عليه، واستبدالها به على سبيل الاستعارة، لأن الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر"[37] وهي استعارة تبعية في الفعل.

وفي قوله تعالى:(وَالذِينَ يَنْقُضونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ميثَاقِه وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ)[38] نجده يذهب إلى أن "النقض هو الفسخ وفك التركيب. فإن قلت: من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد؟. قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل عل سبيل الاستعارة، لما فيه من ثبات الوصلة من المتعاهدين...وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ثم يرمزوا إليه بشيء من روادفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه. ونحوه قولك: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس، وإذا تزوجت امرأة فاستوثرها. لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر، وعلى المرأة بأنها فراش"[39] وهذه من الاستعارة المكنية.

ومن الجدير أن نذكر أن إشارات الزمخشري لفن الاستعارة تخلو تماما من مصطلحات الاستعارة الأصلية والتبعية وكذلك الاستعارة بالكناية، وإن كان يفهم منها مضمون هذه المصطلحات على وجه العموم"[40].

المطلب الثالث: نماذج من دلالات علم البديع في النظم القرآني.

قبل الحديث عن مدى إسهام الزمخشري في ميدان البديع تجدر الإشارة أولا إلى أن المتكلمين منذ القرن الخامس من الباقلاني إلى عبد القاهر ممن عنوا بإعجاز القرآن قد نحوا البديع عن مباحث أسرار البلاغة في القرآن، لأنه في زعمهم لا يدخل في بحث الإعجاز القرآني، نظرا لأن كثيرا من فنونه مستحدث وما ورد منه في القرآن إنما جاء دون قصد وتكلف. فعبد القاهر لم يعن كسابقيه من المتكلمين بقضية البديع في القرآن، بل عرض للسجع والجناس وحسن التعليل والطباق..."ومضى الزمخشري على هذا الهدى لا يعنى بما جاء في الآيات القرآنية من بديع إلا عرضا، ونرى السيد الجرجاني ينقل عنه أنه لم يكن يعد البديع علما مستقلا من علوم البلاغة، إنما كان يعده ذيلا لها وتتمة تحمل عليها. وكانت هذه النظرة

إلى البديع عنده سببا في أن لا يطيل النظر في ألوانه القرآنية، وأن لا يلم بها إلا في الحين البعيد بعد الحين"[41].

والحقيقة أن الزمخشري ليس منكرا للصنعة البديعية فبها يحسن الكلام، ولكنها قشر بجانب اللب، وما اللب إلا الظلال المعنوية والنفسية التي يوحيها نظم الكلام"[42]. وسأقف على نماذج من ذلك فيما سأعرض له من أمثلة.

1- الجناس.

وقد عرض له الزمخشري في معرض تفسير قوله تعالى:(وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ)(43). "وقوله: (من سبإ بنبإ) من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعا أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده، ولقد جاء ههنا زائدا على الصحة فحسن وبدع لفظا ومعنى، ألا ترى أنه لو وضع مكان (بنبإ) بخبر لكان المعنى صحيحا وهو كما جاء أصح لما في النبإ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال"[44].

2- المشاكلة.

وقد عرض لها في عدة آيات من ذلك في قوله في سورة البقرة عن قوله تعالى: (إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَّضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)[45] يقول: "يجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة. فقالوا: أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت، فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال، وهو فن من كلامهم بديع وطراز عجيب هو مراعاة المشاكلة...ولله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها لا تكاد تستغرب فنا إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأسد مدارجه"[46].

3- أسلوب اللف والنشر.

من ذلك ما ورد في قوله تعالى:(وَقَالُوا لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى)[47] يقول: "المعنى وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى. فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله، وأمنا من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه"[48].

4- مراعاة النظير.

وهذا النوع يسميه التناسب والائتلاف والتوفيق، وقد تحدث عنه في تفسير قوله تعالى: (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)[49] يقول :"فإن قلت: أي تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسِّط بينهما العاطف؟. قلت: إن الشمس والقمر سماويان، والنجم والشجر أرضيان، فبين القبيلين تناسب من حيث التقابل، وأن السماء والأرض لا تزالان تذكران قرنتين، وأن جري الشمس والقمر بحسبان جنس الانقياد لأمر الله فهو مناسب لسجود النجم والشجر"[50]

5- التقسيم.

وهو عنصر آخر من عناصر علم البديع التفت إليه الزمخشري فمثلا عند تفسير قوله تعالى:(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَبَ الذِي اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)[51] يقول:" ثم قسمهم إلى ظالم لنفسه مجرم، وهو المرجئ لأمر الله تعالى ومقتصد هو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا، وسابق من السابقين"[52].

وهكذا فإننا نجد الزمخشري يشير إشارات خفيفة إلى البديع، كأنه لا يرتضيه ضربا من ضروب التعبير عن المعجزة في القرآن، وهذا جريا على آراء سابقيه وعلى رأسهم الجرجاني. ولكن مع ذلك "يعد الزمخشري صورة واضحة على استقلال العالِم في البحث وأن كشافه جاء نموذجا تطبيقيا على إعجازه البلاغي، فبحث فكرة النظم وما يتعلق بها من معان بلاغية. إلا أنه غفل إلى حد كبير عن الصورة الأدبية، ورسم المواقف وتشخيص المناظر وتصوير ملامح النماذج البشرية وغيرها مما يعنى به النقاد والأدباء في العصر الحديث"[53].

الخاتمة

ختاما يمكننا التنبيه إلى أن ملامح الدرس البلاغي ظهرت مبكرا في كثير من كتب الدراسات القرآنية، وأنها كانت نتاج تأمل وتدبر في النص القرآني سعيا للكشف عن مناحي الإعجاز فيه، وقد أدى البحث عن سر الإعجاز في النص القرآني إلى الكشف عن روائع هذا النص المقدس، تجلى ذلك واضحا من خلال تطبيقات المفسرين ، ولئن كان الزمخشري قد سبق إلى تلك الإشارات فإننا ندين له بقدرته المتميزة في توظيف تلك التطبيقات في ثنايا تفسيره، والتي أسست للدرس البلاغي فصارت الدراسات البلاغية كلها عالة على ما ألمح إليه الزمخشري، كما أننا نقف من خلال هذه الدراسات على عظمة الدور الذي قام به المفسرون وجسامته في ذات الوقت في سبيل التعامل مع النص القرآني المعجز والتفتيش عن أسراره البلاغية .

هوامش:

[1]- نظرية الإعجاز القرآني، أحمد سيد عمار، ص 25.

[2]- الإعجاز في نظم القرآن، سيد شيخون، ص 13.

[3]- الدرس البلاغي عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع هجري،.رابح دوب، ص196، ط1 دار الفجر القاهرة1997م.

[4]- التراث النقدي والبلاغي عند المعتزلة، وليد قصاب ص225

[5]- سورة طه، الآية 39.

[6]- الكشاف، ج3 ص 61.

[7]- مقدمة تفسير الكشاف، ج1 ص07.

[8]- البلاغة تطور وتاريخ، ص221.

[9]- قضية الإعجاز القرآني وأثرها قي تدوين البلاغة، ص664.

[10]- سورة الحشر، الآية 02.

[11]- تفسير الكشاف، ج4 ص487.

[12]- سورة الفاتحة، الآية 03.

[13]- سورة يونس، الآية 22.

[14]- سورة فاطر، الآية 09.

[15]- تفسير الكشاف، ج1 ص24.

[16]- سورة البقرة، الآية21.

[17]- تفسير الكشاف، ج1 ص96.

[18]- ينظر تاريخ البلاغة العربية، عبد العزيز عتيق، ص264.

[19]- سورة البقرة، الآية07.

[20]- انظر الكشاف، ج 1 ص 61/59.

[21]- المصدر نفسه، ج 1 ص 57.

[22]- سورة التوبة، الآية 34.

[23]- الكشاف، ج2 ص 257.

[24]- سورة مريم، الآية 50.

[25]- هو صدر بيت للأعشى قال فيه : (إني أتتني لسان لا أسر به من علو لا كذب فيه ولا سخر).فعبر باللسان عن الكلام مجازا لأنه آلته .

[26]- الكشاف، ج3 ص 21.

[27]- سورة البقرة، الآية 235.

[28]- الكشاف، ج1 ص279/278.
[29]- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص235.
[30]- سورة آل عمران، الآية77.
[31]- الكشاف، ج1 ص369.
[32]- ينظر تفسير المنار ، محمد رشيد رضا،ج3 ص282، دار الكتب العلمية ط1420/1هـ/ 1999م، بيروت لبنان.
[33]- تفسير الكشاف ، ج1 ص 83.
[34]- سورة الزمر ، الآية 69.
[35]- الكشاف ج1 ص 140.
[36]- سورة البقرة، الآية16.
[37]- الكشاف، ج1 ص76.
[38]- سورة البقرة، الآية27.
[39]- الكشاف، ج1 ص 124.
[40]- المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز، أحمد جمال العمري، ص 162.
[41]- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص 266/265.
[42]- منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، مصطفي صاوي الجويني، ص 259.
[43]- سورة النمل، الآية 22.
[44]- الكشاف، ج3 ص 348.
[45]- سورة البقرة، الآية 26.
[46]- الكشاف، ج1 ص118/117.
[47]- سورة البقرة، الآية111.
[48]- الكشاف، ج1 ص176.
[49]- سورة الرحمن، الآية 06.
[50]- الكشاف، ج4 ص 433.
[51]- سورة فاطر، الآية 32.
[52]- الكشاف، ج3 ص 594.
[53]- بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، أحمد عامر، ص 213.